سير الزمان

أركان السلام

هل يمكن أن تتولد

ابراهيم باشا

البرنس سابونجى

أركان السلام

هل يمكن ان تتوطّد ؟

جورج مبشرد كيتز — انكليزي

اندره موروى — فرنسي

مسز رونزفلت — اميركية

الاسقف انج — انكليزي

اوغو داتزيو — ايطالي

هفلوك اليس — انكليزي

اندست دمنر — فرنسي اميركي

اونفالد شبنغلر — الماني

السيور ده مرياغا — اسباني

مهاتما غاندي — هندي

لن يو تانغ — صيني

« السلام رغبة . والحرب حقيقة »

شبنغلر

« العالم وطن الاوطان »

ده مرياغا

« المسيحية هي السبيل »

انج ودمنر

« سلّحوا الجامعة »

كيتز

« يوزنا الاخلاص »

غاندي

« اوربا لا تتعلّم الاّ اذا منيت بنكبة اعظم هولاً من نكبة الحرب الكبرى »

لن يو تانغ

— استفتاء عالمي لمجلة ناسيونل انكليزية —

— ١ —

اوزفالد شبنغلر الفيلسوف الالماني

لا يسع الباحث ان يردّ على هذا السؤال — هل يمكن ان تتوطد اركان السلام العالمي — الاّ اذا كان ملمًّا بتاريخ العالم. ولكن الالمام بتاريخ العالم، يعني، معرفة احوال الانسان، كيف كانت وكيف ينتظر ان تكون. فثمة فرق كبير، بين رأيك في المستقبل وكيف يمكن ان يكون، ورأيك في المستقبل وكيف تشتهي ان يكون

السلام رغبة. والحرب حقيقة واقعة. ولكن التاريخ البشري، لم يحقق رغبات الانسان ومثله العليا. فالحياة، بين الناس والحيوان، معركة. انها بين الناس معركة بين الافراد والطبقات والشعوب والدول، وذلك متوقف على طبيعة الحرب وهل هي تجارية او اجتماعية او سياسية. هي معركة في سبيل القوة، او الربح، او العدل، فاذا خابت الوسائل المختلفة التي يسلكها الانسان الى احد هذه الاغراض، لجأ الى القوة

ومن دلائل الشؤم ان الشعوب البيض هي الشعوب التي تتحدث بالسلام الآن لا الشعوب الملوّنة. فاذا اقتصر هذا الحديث على افراد المفكرين والمثالين، فليس في ذلك ضرر ما. لان هذا كان شأنهم في جميع العصور السابقة. ولكن متى نزعت الامم الى السلام، كان ذلك دليلاً على الضعف والانحطاط. فالشعوب القوية التي لم تغلب عليها النعومة والسقطة، لا تميل هذا الميل ولا تنزع هذا النزع. فالنزوع الى السلام، تسليم للمستقبل، لان النزعة السلمية المثالية، تعني الاستقرار النهائي، وهو حالة مناقضة لمعنى الحياة نفسه

ولا بدّ من الحروب ما زال هناك ارتقاء انساني، لان النزعة السلمية معناها التسليم بادارة شؤون العالم، للذين لا ينزعون الى السلام. ولا بدّ ان يبقى السلام مثالاً اعلى، والحرب حقيقة واقعة. فاذا عزمت الشعوب البيض ان لا تتولى بعد الآن زعامة الحضارة، فالشعوب الملوّنة تحل ذلك، فيصح زعماؤها حكام العالم

— ٢ —

دد متريافا مندوب اسبانيا في جامعة الامم

السلام العالمي الدائم، كالسلام القومي الدائم، لاهو متعذّر اصلاً ولا ممكن اصلاً، اذا أريد به فترات طويلة من الزمن ليس للعنف فيها شأن كبير في تقرير شؤون الناس والامم

ان بعض الامم الكبيرة ، تمتعت بسلام قومي خلال فترات طويلة من تاريخها. فالولايات المتحدة الاميركية تمتعت بهذا السلام من ايام لنكن. وليس ثمة اي حائل لا يمكن تخطيه ، يحول دون التطوّر الدولي ، نحو حالة من العلاقات بين طائفة من دول العالم، تشبه حالة العلاقات بين الولايات في جمهورية الولايات المتحدة الاميركية. والشروط اللازمة لتحقيق ذلك ، تنطوي عليها الفاظ السؤال نفسه

فالسلام، هو اتفاق بين ارادات متعدّدة. واذن فارادة الدول الستين او نحوها من دول العالم اليوم يجب ان تتفق لكي تفوز بالسلام. ولا يكفي ان تسلّم جميعها ، بقانون دولي واحد ، مع ان هذا التسليم ، امنية تحدى اليها الركائب

ان إتفاق لارادات يقتضي شيئاً اكثر من الاتفاق في اساليب السلوك . انهُ يقتضي اتفاقاً في الاغراض . ولكن كلُّ امة من الامم تجعل اغراضها القومية ، هي الاغراض العليا التي تأتمُّ بها

فالسلام لا بدَّ ان يبقى متعذراً ، الى ان تتخلّى الامم عن هذه الاغراض الخاصة في سبيل الغرض الوحيد الجدير بتضافر الارادات القومية في سبيله — وهو تنظيم العالم تنظيماً معقولاً يجعله مثوى جديراً بالانسان

ان الوطنية القومية مهّدت السبيل للسلام القومي ، في الامم . وليس هناك من سبيل الى السلام العالمي ، الاَّ بتعزيز الوطنية العالمية . ولكن الوطنية العالمية ، لا تدرك باضعاف الوطنية القومية واخمادها ، بل بتطهيرها والتسامي بها

العالم هو وطن الاوطان . ومتى ادركنا هذا اصبح السلام العالمي مستطاعاً

— ٣ —

جون مينارد كينز الاقتصادي البريطاني الكبير

ان توطيد اركان السلام العالمي يقتضي امرين : الاول ان تتضافر جميع الامم التي ترغب رغبة اكيدة في المحافظة عليه . والثاني يجب ان يظهر تضافرها في مظهر قويّ يجعل خطر محاربتها خطراً حقيقيًّا لا يتعرض له الاَّ احمق او مغامر

اما الاركان التي نهضت عليها جامعة الامم حتى الآن ، فكانت تقوم على فرض خاطئ، وهو ان جميع الامم ترغب في السلام والعدل على السواء . لذلك كان مرماها منذ نشأتها ان تضم في نطاقها جميع الامم ، لا الامم الراغبة رغبة حقيقية فيهما فقط . وقد كانت الامم حتى عهد قريب تتظاهر برغبتها في السلام . ولكن هناك امم الآن لا تكتم رغبتها في الحرب . وهذا يبعث على تطور جامعة الامم تطوراً

قد يجعلها في النهاية مشتملة على الامم الراغبة في السلام دون غيرها . وهذا التطور مما يرحَّب به ، وسوف يكون مصدراً للقوة لا باعثاً على الضعف

من العبث ان نبحث في نزع السلاح الآن . بل على الضد من ذلك يجب على جامعة الامم ان تكون اقوى مما هي من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، بل يجب ان تكون اقوى من الدول المعتدية او التي يحتمل ان تعتدي على غيرها ، اذا كان ذلك مستطاعاً . الاَّ ان هذا ، لسوء الحظ ، حلم بعيد التحقيق . لان جامعة تشتمل على الامم الراغبة في السلام تبقى ضعيفة لا حول لها ولا طول ، اذا لم تضم الولايات المتحدة الاميركية

وقد قيل لنا أن هذا محال لان الولايات المتحدة الاميركية تخشى ان تشتبك في شؤون الدول الاخرى وان تربط مصيرها بمصير سائر العالم بل بمصير الحضارة

— ٤ —

مهاتما غاندي الزعيم الهندي العظيم

اذا انكرنا إمكان السلام الدائم ، فكأنا تنكر شملة الالوهة في طبيعة الانسان . وقد اخفقت الوسائل والاساليب التي استعملت لتحقيق هذا السلام ، لان الذين سعوا اليه كان يعوزهم الاخلاص ، من دون ان يدركوا ذلك . فالسلام لا يمكن ان يتحقق بتوافر بعض الاحوال اللازمة لتحقيقه فقط لانهُ كالتفاعل الكيماوي لا يتمُّ الاَّ اذا كانت جميع الاحوال اللازمة لهُ متوافرة . فاذا تخلَّى زعماء الامم الذين يسيطرون على آلات التدمير ، عن هذه الآلات وهم يدركون نتائج عملهم ، تحقق السلام العالمي الدائم . وهذا مستحيل ما لم تتخلَّ الدول الكبرى عن مشروعاتها الامبريالستية . وهذا بدوره مستحيل ، ما لم تمتنع الامم الكبرى عن الاعتقاد في المنافسة التي تقتل الروح ، بل علينا ان نستأصل الرغبة في زيادة حاجات الانسان ، وما ينجم عن ذلك من زيادة مقتنياته الدنيوية

واني اعتقد ان اصل الشر هو حاجتنا الى ايمان حيٍّ بالله . ومن مآسي الحياة ان الامم التي تدعي انها تؤمن برسالة السيد المسيح وتدعوهُ رسول السلام ، لا تعرب عن شيء من ذلك الايمان في اعمالها

لقد تعلمت من حداثتي ، ثم حققت ذلك بالتجربة والاختبار ، بأن اخسَّ الناس يستطيع ان يتعود الفضائل الانسانية الرئيسية . وهذه القوة ، التي لا شكَّ فيها ، هي ما يميِّز الانسان عن سائر مخلوقات الله . ولو ان دولة واحدة

من الدول الكبرى ، اقدمت على عمل الانكار العظيم ، لا تتبع بعضنا ان يرى السلام مستتبًّا على الارض

— ٥ —

انور مورو الكاتب الفرنسي المشهور

ليس ثمة شيء مستقرٌّ او كامل في حياة الانسان وشؤونه . فالمحاكم والسجون والعقوبات ، لم تستأصل شأفة الجرائم ، ولكنها جعلتها اقلّ مما كانت فصار في وسع المرء ان يعيش في سلام الى حدّ ما . الاّ ان الحرب الحديثة ، والاسلحة الفتّاكة التي تستعمل فيها ، سوف تصبح خطراً مخيفاً على الحضارة ، حتى ليجب على جميع الناس ان يبذلوا كلّ ما في وسعهم لتنفيذ القانون الدولي ، اذا شاءوا ان لا يقضي على النوع الانساني بالانقراض

ولو ان جامعة الامم ، فازت بتأييد كلّ التأييد من جميع الامم المتحضرة ، لكان في وسعها ان تصبح اداة هذا العدل الدولي . ولكن الجامعة لم يتح لها امل النجاح في فترة ما من حياتها . فتخلّف الولايات المتحدة الاميركية عن الاشتراك فيها ، حرمها من تأييد احدى القوات الكبرى في العالم . وانكلترا بعد ان اضعفتها مدى خمس عشرة سنة ، هبّت الى تأييدها وتعزيزها بنشاط عظيم ، في وقت ترى فيه فرنسا انهُ من المتعذر عليها ، ان تحس لها حماسة انكلترا الآن

لقد أدركنا بعد التجربة ، ان عهد الجامعة كان تعوزه الدقة . فأين نجد العلاج ؟ لا بدّ من اصلاح الجامعة اصلاحاً يمكن الولايات المتحدة الاميركية من الاشتراك فيها واذا تعذّر ذلك وجب انشاء اتحاد اوربي

واني لأخشى ، ان يكون الانسان ، ما يزال في حاجة الى عبر شديدة ، قبل ان يبلغ مستوى الحكمة التي تفرض على الامم قبول النظام الذي تفرضهُ محاكم العدل على الافراد

— ٦ —

الاستاذ اج وفلس انكليزي

لو اننا تذكرنا كلمات هربرت سپنسر بانهُ لا توجد كيمياء سياسية تمكننا من استخراج السلوك الذهبي من الغرائز الرصاصية (اشارة الى تعذّر تحويل الرصاص الى ذهب في علم الكيمياء) لوفرنا على انفسنا شيئاً كثيراً من خيبة الآمال من سنة ١٩١٨ الى الآن . ان انقاذ الافراد والامم يتمّ بحسن النية ، لا بأي وسيلة سياسية

ان الادلة التي يبسطها السير نورمن انجل وغيره ضدَّ الحرب ، لا يمكن ان تدحض . فالحرب بين امتين متحضرتين خطأٌ وجريمة . والحرب الكبرى ، كانت حرباً اهلية ، بين امم تشترك في ثقافة واحدة ، وليس بينها فوارق لا يمكن تسويتها . فكانت نكبةً على جميع الامم التي خاضت غمارها . فعود الى حرب من قبيلها ، قد يزجُّ اوربا في عصر من الظلمة كالعصر الذي اعترض ارتقاء الحضارة بين سنة ٥٠٠ م وسنة ١١٠٠ م

واسباب هذا الداء — لانا لا نستطيع ان نطلق عليه اسماً آخر — هي كما يلي :

١ — النزعة الفطرية في الانسان الى الخصام والكفاح . فقد انتضت على الانسان الوف من السنين وهو لاحم carnivorous يسير على قدمين . فليس بالهين القضاء على القرد والبر فيه

٢ — الخوف — والخوف في كثير من الاحيان لهُ ما يسوِّغهُ

٣ — بقاء الرغبة القديمة في التوسع الجغرافي

اما بواعث الامل فهي كما يلي :

١ — اتساع نطاق المعرفة باحوال البلدان الاخرى وثقافتها . فليس ثمة انكليزي ، زار فرنسا او المانيا او ايطاليا او اميركا ، يرغب في ان يؤذي سكان هذه البلدان ، ونرجو ان لا يجدنا زوّار انكلترا شعباً يستحقُّ ان يؤذى

٢ — جرت العادة في الغالب على ان يشهر الحرب ، من يخشى ان يخسر شيئاً . ولكن اذا نشبت حرب اخرى ، فلا ريب في ان من يملك شيئاً سوف يخسره غالباً كان ام مغلوباً

٣ — الحرب بين الامم خطأٌ في فهمنا لتسلسل الحوادث . ويا ليتني استطيع ان اقنع نفسي بأن الحرب بين الامم لا تليها حرب طاحنة بين الطبقات

ولا ريب في ان الديانة المسيحية تملك علاجاً لكل هذا . إلاَّ انهُ انتضت الفا سنة على معرفتنا الديانة المسيحية ولكننا لم نجرِّب علاجها

— ٧ —

أرغو دانزيو رئيس العمد الايطالية في اميركا

يصبح السلام العالمي في حيِّز المستطاع ، متى ادركت الانسانية انها في رغبتها في نشر السلام والخير الاجتماعي العام ، حاولت ان تمنع النزاع المسلح بين الامم بمعالجته من غير الناحية التي يجب ان تعالجهُ منها

ان خطط دعاة السلام ، ترمي في الغالب الى السيطرة على القوى العسكرية ، اعتقاداً منهم ان الشعوب الشاكية السلاح ، لا بدَّ لها من استعمال سلاحها عاجلاً او آجلاً ضدَّ جارها .

ثم ان العلاقات السياسية الدولية ، قامت حتى الآن على قاعدة تعزيز قوة الامم الزائفة في السلام ، لكي تروع الامم التي تحسُّ ضرورة استعمال السلاح للفوز بما لا تفوز به بالاساليب السلمية . اي ان هذه القاعدة تقرّر مبدأ خطيراً وهو أن هناك امماً تشعر بحاجة ملحة الى الخروج على السلام حالة انهُ لم يبذل اي سعي لازالة تلك الحاجة

ان الحروب العسكرية ، قد صدر عليها الحكم الادبيُّ الدولي ولكن الحروب الاقتصادية — والتاريخ يعلمنا انها الباعث الرئيسي على العنف الدولي — هي ما تتحالف الامم في سبيله وتتنابذ . فاذا كان السلم الاقتصادي هو هدف دعاة السلام النظريين لم يكن من الضروري ان تتفق الامم على تحديد القوى الحربية ، لكل دولة من الدول ، لانك في الجماعة المستقرَّة المتمتعة برخاء العيش لا تحتاج الى تعيين عدد المدمّرات التي يحق لكل فرد ان يحملها

— ٨ —

مفلوك انيس الفيلسوف والاجتماعي الانكليزي

اني لا اشك مطلقاً في أن السلام العالمي الدائم مستطاع ، وانه يتحقق متى وجدت المشيئة التي ترغب فيه . فليس ثمة حرب بين الحيوانات القريبة من الانسان ، وليس هناك دليل على وجود الحرب في تاريخ الانسان البدائي

وقد تكون الحرب ، ناحية من نواحي التقدم الانساني ، كانت في الماضي مفيدة ، في تعزيز روح النظام الاجتماعي ، والتعاون ، ولكنها اليوم ، في رأي معظم الشعوب ، اصبحت ولا ضرورة لها ، بل اصبحت وهي مبعث ضرر عظيم

حتى الدولة المنتصرة في الحرب ، قلما تفوز بضمان السلامة ، التي في سبيلها خاضت معمعة الكفاح

ان تضافر الامم الكبرى ، على السعي لتوطيد السلام ، سواء تمَّ ذلك السعي بواسطة جامعة الامم او بأية واسطة اخرى ، يكفي لاحلال التحكيم محل الحرب

واذن فالواجب يقضي علينا ، ان نوضح للناس ، بوسائل التعليم المختلفة ، ما تجلبهُ الحرب على الحضارة من الضرر ، وان نبذل ما في وسعنا بصفة كوننا ابناء البلدان الدمقراطية من الضغط على حكوماتنا لالغاء الحرب

— ٩ —

الاب ارنست دنته مؤلف قلبي امريكي

أمن المعقول ان نتكلم عن السلام الدائم وهل يمكن ان توطد اركانهُ في هذه الايام القلقة المضطربة ؟ لا ريب عندي في ذلك . فليس يصد الى التشاؤم بعد مراجعة المشكلات الدولية ، الا من كان الانقسام في طبيعته غالباً على العقل. والادلة التي يستندون اليها — اي تعذر تحويل الناس الى ملائكة ، والصعوبة في التوفيق بين البلدان والسكان ، وبواعث الطمع والغيرة التي لا يمكن استئصالها ، وطغيان الحكومات الدكتاتورية ، ولين الحكومات الدمقراطية — كانت ولا تزال حججهم في قديم الزمان وحديثه

فليستندوا اليها ما شاؤوا اذ ليس ثمة ريب ، في ان جميع الامم ، كانت تعتقد من خمس عشرة سنة ، في امكان توطيد السلام . وليس ثمة ريب ، في ان ملايين من الرجال والنساء — زهرة الناس في معظم البلدان — لا يزالون على هذا الاعتقاد

وكل باحث في تاريخ الفكر ، يعلم ، ان المعتقدات التي تسود طوائف كبيرة من الناس ، لا بدَّ من ان تتحقق في النهاية . وكلُّ ما علينا ، هو ان نزيد عدد هؤلاء المؤمنين بامكان السلام ، كما زاد عدد المؤمنين بالسلم ، وبالله

لم يأت عصر على العالم ، كان فيه الاعتقاد في عدم ضرورة الحرب ، اقوى مما هو الآن . وما نحتاج اليه ، انما هو الحكمة ، وضبط النفس ، والقدرة على الفهم ، التي يجب ان تصحب هذا الايمان

فماذا يحول دون هذه السجايا ؟

لماذا لا نبشّر بالمسيحية كما يجب ان تكون ، او كما هي حقيقة ؟ واذا بشّرنا بها ، فما يحول دون نجاحها في هذا الصدد ، كما نجحت في ما لا يقلُّ عن هذه المشكلة عسراً وتعقيداً ؟

— ١٠ —

المستر فرنكلن روزفلت رئيس الجمهورية الأميركية

ان السلام الدائم مستطاع . ولكنهُ لا يصبح محتملاً ، الا اذا ادركت امم العالم ، بأن حفظ الذات يقتضي التنظيم في سبيل السلام لا في سبيل الحرب

لا يسعنا ان نتوقع عقد معاهدات راسخة على الدهر . فلا بدَّ من ان نجد اساساً ، يمكن ممثلي الامم من الاجتماع والبحث في هدوء وسكون ، وجوه التحوُّل الطارئة على العالم ، والحاجات الجديدة الناشئة عنها

من الواضح ان الشعوب تتغير والاحوال الاقتصادية تختلف فاذا ادركنا ان الخير المطلق ، مفضَّل على الخير الوقتي الذي قد تجنيه دولة من الدول او فرد من الافراد ، أمكننا ان نلتقي ونبحث في المشكلات الناشئة ، وتسويتها ، تسوية معقولة

— ١١ —

ان بوتانج مؤلف وفيلسوف صيني

ان السلام الدائم متعذر الآن في أوربا للاسباب التالية : —

١ — انا نبيع ونشتري دوليين وفكر وشعر وطنيين

٢ — انا مخلوقات نصفها عقل ونصفها شعور . وسير الشؤون الانسانية خاضع للشهوات الحيوانية من خوف وحقد ورغبة في الثأر اكثر من خضوعه لاحكام العقل . وما زال ستالين وهتلر وموسوليني يحكمون اوربا فالراجح ان الحرب لا تزول

٣ — ان جميع المؤتمرات الدولية تمنى بالخيبة لان المندوبين يمثلون مصالح بلدانهم المختلفة ، وليس ثمة سياسي عالمي ، يمثل مصالح اوربا المشتركة

٤ — الفاشستية تعيش على امل الحرب ، ولا بدَّ من ان تفي بما تعد

ولا يصح السلام الدائم ممكناً الاَّ : —

١ — متى قرأ جميع الاوربيين لاوتسو واخذوا بقسط من الحكمة والاستهتار Cynicism (ولا ينقذ العالم الاَّ المستهترون)

٢ — متى ساد الفساد والارتكاب الادبي ، واصبح الضباط يحسبون الفرار فضيلة عليا . فاوربا لا تعلمُ الاَّ اذا منيت بنكبة اعظم جداً من نكبة الحرب الكبرى

٣ — متى اصبح للمفكرين نصيب اوفر من التأثير في سياسة الامم والشعث وراءهم إخوة للاوربيين الصالحين الذين يضعون المثل فوق الوطن

ابراهيم باشا[1]

تأليف القاضي بيير كرابيتس

للقاضي كرابيتس يد على التاريخ المصري الحديث تذكر فتشكر . فقد نحضا في سنوات قلائل بأربعة كتب وهي كتاب غوردون فكتاب اسماعيل فكتاب فتح السودان وهذا رابعها في تاريخ البطل المغوار والسياسي المحنك ابراهيم باشا

كانت الصورة الغالبة على الاذهان ان ابراهيم باشا على شهرته في فنون القيادة الحربية وانتصاراته الباهرة في ميادين القتال لم يكن إلاَّ سيفاً في يد أبيه العظيم محمد علي باشا . ولكن اذا أتممت مطالعة هذا الكتاب خرجت منهُ وقد ارتسمت في ذهنك صورة واضحة لشخصية فذة هي شخصية ابراهيم باشا التي جمعت ما قلما يجتمع في خلق فرد من الناس — براعةً في فنون الحرب واقداماً في ميادينها ودهاء وحنكة في السياسة ومقدرة نادرة في التنظيم والادارة . وقد كان ابراهيم باشا في جميع ذلك صاحب رأي قويم اثبتت التجارب والحوادث صحته وسداده بيديه في غير وجل ولا تردد ولكنهُ كان اذا اختلف رأيهُ عن رأي ابيه يطلب رأي الوالد حبًّا به وبرًّا واذعاناً لهُ واحتراماً

وليست هذه الصورة الجديدة لابراهيم باشا من بنات الخيال الروائي بل هي نتيجة بحث وتنقيب في معظم ما ألف وما كتب عن تلك الحقبة من تاريخ الشرق الادنى من كتب طبعت ونشرت ومذكرات رسمية ورسائل أذيع بعضها في هذه الكتب وظلَّ البعض الآخر مطويًّا في سجلات الوزارات الاوربية او في محفوظات قصر عابدين

والقاضي كرابيتس مدين في الاطلاع على معظم ما لم ينشر من هذه الوثائق لسخاء جلالة الملك فؤاد وبُعد نظره . فقد اباح لهُ جلالته الاطلاع على سجلات عابدين واذن من جيبه الملكي الخاص على نقل الوثائق المحفوظة في سجلات الوزارات الاوربية المختلفة . لذلك جعل المؤلف ديباجته شكراً خاصًّا رفعه الى مقام جلالة الملك فؤاد

من المسائل التي اختلف فيها الرأي في تاريخ ابراهيم باشا مسألة نسبه وقد ذهب غير واحد من الكتَّاب الى ان ابراهيم لم يكن ابن محمد علي . ولكن القاضي كرابيتس اثبت في الفصل الاول من هذا الكتاب اثباتاً قاطعاً ان ابراهيم كان ابن محمد علي وهذا الاثبات مستنبط من فهم دقيق لاحوال ذلك العصر من ناحية وقائم على وثائق لا يتطرق اليها الشك من ناحية اخرى . وبعض

---

(١) Ibrahim of Egypt, by Pierre Crabitès (Routledge London)

هذه الوثائق من سجلات قصر عابدين التي لم تنشر بعد . فظهور بعضها هنا من الخدمات الكبيرة التي اداها المؤلف لنهم حقبة من التاريخ هي من اكثر حقب القرن التاسع عشر غموضاً وإبهاماً

ليس في وسعنا هنا ان نتتبع شخصية ابراهيم وقد اخذت تتفتح عن ازاهير العبقرية منذ ما قدم مصر وتولى فيها عمل الدفتر دار وهو عمل اداري كبير الشأن الى ان تولى قيادة الحملة المصرية في الجزيرة واخضاع الوهابيين وكيف تجلت حنكته السياسية ومقدرته الادارية في معاملة خصومه واتباعهم

ولكن الحقبة التالية من حياته كانت ذات شأن كبير في تاريخ الشرق الادنى واوربا معاً . ففي خلالها حدثت حرب الاستقلال اليونانية ومعركة ناڤارين البحرية . وقد وقف المؤلف نحو ربع كتابه عليها .. فقد عهد الى ابراهيم من قبل السلطان عن طريق والده محمد علي في ان يخضع الثوار في اليونان . وما كاد يشرف على تحقيق هذه المهمة حتى تألبت دول اوربا بدواعث سياسية ودبلوماسية مختلفة وتدخلت في الامر مؤيدة حق اليونان في الاستقلال . هذا التدخل افضى الى معركة ناڤارين بين اساطيل الدول الاوربية والاسطول المصري

ولعل الخدمة الكبرى التي اداها كرابيتس لفهم عصر ابراهيم باشا قائمة على توضيحه مقدمات معركة ناڤارين وحوادثها وبواعثها

فقد قرأ الوثائق الرسمية قراءة صبر وفهم وخرج منها برأي جديد يوضح الموضوع ويضعه في نصابه الطبيعي

***

اثبت القاضي كرابيتس ان محمد علي باشا وابراهيم باشا كانا يدركان قيمة الاسطول وفائدة السيطرة على مسالك البحار . وفي فصل آخر من فصول الكتاب تنقل المؤلف قطعة من رسالة كتبها ابراهيم باشا وهو في الاناضول تبين ادراكه هذا وتوضحه فانه طالب وقتها ان تضم كيليكية والاناضول الى مصر لان مصر تحتاج الى خشب حراجها في بناء الاسطول

فرجل يدرك هذا الادراك قيمة القوة البحرية لا يعقل منهُ ان يعرض اسطوله للدمار تمزقاً ، في معركة مع الاساطيل المجتمعة لدول اوربا البحرية . ثم ان الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف هي لممثلي دول اوربا في مصر تثبت ان محمد علي كان مستعداً ان يخسر بعض سفنه اذا تظاهرت الدول الاوربية بقوتها البحرية أمام الاسكندرية لكي يثبت للسلطان انهُ مستعد لنجدته بأسطوله في المورة لولا الدول الاوربية التي حالت دون ذلك

يضاف إلى هذا انهُ لما دارت معركة ناڤارين كان ابراهيم باشا على البر في المورة يحاول ان يرد العصاة ومن يؤيدهم من متطوعة الافرنج . وتاريخ ابراهيم العسكري بجملته وتفصيله لا يحمل

احداً على الظن بأنهُ يثير معركة تعرض اسطوله للتدمير ثم لا يحضرها أو يديرها بنفسه

هذه الحقائق وغيرها تبين ان محمد علي وابراهيم ما كانا ليقدما على مناجزة العدو في ناڤارين تهجماً واذن فلا بدَّ من البحث عن سبب آخر لتفسير ما وقع

يرى القاضي كرابيتس ان السبب المعقول هو سوء تفاهم وقع بين ابراهيم باشا وأميرال الاساطيل المتحدة . فالهدنة التي تمَّ الاتفاق عليها حسبما ابراهيم باشا شاملة لحركة الامدادات التي تأتيه من الاسكندرية فقط كما حسب ان ما طلبه من الاميرال وهو الحد من عمل الورد كوكران الانكليزي في مساعدة الثوار اليونان كان من شروطه التي تم الاتفاق عليها . فلما هبط الورد كوكران على بترابس ارسل ابراهيم باشا بعض سفنه لمقاومته فحسب ذلك منهُ انتهاكاً لكلمته وخرقاً لاتفاق الهدنة فكانت ناڤارين

بعد معركة ناڤارين حاول الفرنسويون اغراء ابراهيم باشا بمساعدتهم في اخضاع الجزائر وكان حينئذٍ منصرفاً الى تنظيم الشؤون الادارية والزراعية فدارت مفاوضات في هذا الصدد ثم قلبت ان حبطت لان سوريا كانت كأنها تناديه

اما قصة غزوات ابرهيم باشا من جنوب سوريا الى ان وصل الى ابواب استانبول فأخَّاذة بما يتجلى فيها من صلابة المشيئة ومهارة في الفنون الحربية وادراك القواعد الاساسية التي تقوم عليها سياسة البلدان . وقد قال ملحق التيمس الخاص بالكتب في هذه الناحية من كتاب القاضي كرابيتس ان ما بسطهُ فيها من الناحية العسكرية جدير بعناية المؤرخ الحربي . ولكن الظفر الحربي تلاه التأليب والتفرق والدس من الناحية السياسية بين دول اوربا وليس في هذا الحديث ما يشرِّفها او يشرِّف معظم رجالها الذين خاضوا هذا الميدان . ليست هذه العبارة من كلام القاضي كرابيتس وانما هي ما توصل اليهِ كاتب هذه السطور من قراءة فصول الكتاب الخاصة بهذه الوقائع وهي حافلة بالوثائق والمكاتبات الرسمية

***

هذه بعض ما امتاز بهِ كتاب « ابراهيم باشا » ولو ان الدفاع عن بعض نواحٍ من حياة ابراهيم باشا كان ارفق تناولاً لما ظنَّ بعض الكتَّاب ان القاضي كرابيتس يحاول ان « يبيِّض » ابراهيم. ومما سرنا انهُ اشار غير مرة في اسانيده الى كتاب « الامبراطورية المصرية » الذي وضعهُ الدكتور محمد صبري بالتاء الجدير بهِ . ولو كان القاضي يعرف العربية لكان في الغالب رأى ما يستند اليهِ في كتاب الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي في اجزائهِ المختلفة وفي كتاب المرحوم سليمان بك ابو عز الدين وقد وقفه على « ابراهيم باشا في سوريا » على ما نذكر

البرنس سايونجي

صلة بين الاجداد والحفدة

لو كان رجال السياسة في اليابان قد تعوّدوا كتابة المذكرات اليومية ، لكان سياسيهم الاكبر ، البرنس كيموكي سايونجي ، اخرج للناس مجموعة فريدة في بابها ، بما تحتويه من ألوان الحياة ونواحي الاختبار الانساني . انهُ جمع في حياة رجل فرد عصر الاقطاع في اليابان وعصر التمدن الحديث

تقلد منصب رئيس الوزارة ثلاثاً ، ووقّع مع كلنصو وولسن ولويد جورج معاهدة فرساي. نعم ان طائفة كبيرة من رجال السياسة المعاصرين اشتركوا في توقيع معاهدة فرساي ، ولكن سايونجي كان يستطيع ، وهو جالس معهم في ردهة المرايا في قصر فرساي ، ان يطوي بخياله نصف قرن من الزمان ، الى العهد الذي لبس فيه اللباس العسكري الملوّن الخاص بمقامه العالي ، وتقدم فرقة من جنود الاشراف ، لاخضاع القبائل اليابانية الثائرة على امبراطوره

كان فتح المناطق واخضاع القبائل في سبيل امبراطوره ، مقدمة لحياة حافلة بألوان الخدمة العامة ، وضروب الثقافة العالية . كان ذلك العصر في اليابان عصر الشباب . اذ كانت المناصب العالية في الحكومة والجيش والحياة الاقتصادية حافلة بهم . وكان سايونجي متحلياً بجميع الصفات التي تدفع بالشاب الطموح الى طريق النجاح . كان مقرّباً من الدوائر التي تحيط بالامبراطور واليها يرجع الفضل في استتباب سلطته من الضياع . وكان ذكيًّا متوقد الذكاء . وكان شريفاً تجري في عروقه أنقى الدماء . وكان دمقراطي الطبع ، عجيباً في مقدرته على مؤاخاة رجال القبائل ، ورجال السياسة على السواء . وكان يعرف ادب اليابان والصين الكلاسيكي ، كما يعرف الانكليز المثقفون شكسبير . في امكانه نظم مقطع من الشعر ، او رواية أبيات توافق المقام . وكان يؤيد جمعية الشعراء ، اذ كان الشعراء في اليابان المنطلقة الى التمدن الحديث ، لا يشغلون من المقام الاجتماعي المرتبة الاولى . ففي المآدب التي كان سايونجي يقيمها ، كان الشعراء يتفلتون من القيود الاجتماعية . ويروي الاميرال سايتو ، رئيس الوزارة اليابانية السابق وأحد صرعى الفتنة الاخيرة ، ان الادباء عبُّوا من الخمر في احدى هذه المآدب كالحيتان

على أن سايونجي لم يشتهر اسمهُ في الغرب ، الاّ في السنوات الاخيرة ، إذ أصبح سياسي اليابان الاكبر . ولقب « السياسي الاكبر » لا يسند فقط الى سياسي بلغ من العمر عتيًّا . بل

ان الامبراطور ، يمنح بعض الساسة والقواد عند التقاعد من خدمة مصالح الدولة لقب السياسي الاكبر Elder Statesman يقتضي ارادة امبراطورية يؤمر فيها الرجل المقي في تقديم النصح للامبراطورية . وقد وردت الانباء الاخيرة بأن الامبراطور بعث يستشيره في الحوادث الاخيرة مع ان العسكريين حاولوا اغتياله لانه من احرار النزعة

وقد عين سايونجي في المنصب الذي عودته من مؤتمر الصلح سنة ١٩٢٠ . كان الساسة الكبار الذي أخلصوا النصح للامبراطور ، قد مضوا في سبيل كل حي . وكانت الحكومة البرلمانية قد انشئت ، وسلطة رئيس الوزراء قد عظمت واتسع نطاقها . ولو لم يكن سايونجي ، سياسيًّا برلمانيًّا يعرف اساليب النظم البرلمانية ، ومرن العقل حر المبادىء ، لكان الاحتكاك والتصادم بين رئيس الوزراء ومستشار الامبراطور الاكبر امراً لا بدَّ منهُ . وكان الساسة الكبار من قبله غالباً ما يتوسطون بين الوزارة والجيش ، او يقولون في المأزق الكلمة الفاصلة فيما يتعلق بسياسة الحكومة ، ولكن سايونجي نفسه رأى لما أنعم عليه بالثقب الجديد ، أن هذه الاعمال من شأن الحكومة لا من شأن المستشار الامبراطوري

لذلك اصبح المنصب الجديد في أيامه ، عبارة عن كون « السياسي الكبير » مستشار الامبراطور الأعلى فيما يتعلق بتقلب الوزارات . وهذا عمل لا بدَّ منهُ لان على عاتق الامبراطور وقع تبعة تعيين رئيس الوزراء ، وهو بحكم منصبه ، لا يستطيع أن يكون محيطاً بالدقائق والتفاصيل متصلاً بجميع نواحي الرأي العام والشعور القومي ، بل قد لا تكون لهُ الخبرة الوافية التي تمكنهُ من اختيار أصلح رجل للحال

فسايونجي ، هو عين الامبراطور واذناه وارادته ، اذ تتطلب الحالة في اليابان تعيين وزارة جديدة . جميع زعماء الامة العاملين يهرعون الى داره . فالوزراء الذين يساورهم القلق على المستقبل يسرعون الى داره المطمئنة الساكنة ، فيبرغوره . ويتبعهم زعماء المعارضة . فاذا ذهب ماتسوكا الى لندن ، أو ايشي الى وشنطن ، أقبلا عليه قبل السفر ، ينتظران منهُ التعليمات الاخيرة

انهُ يجلس ساكناً كالجبل لا تهزه الرياح . ان شيخوخته قد حررته من نوازع الشهرة والثروة وشهوة السلطان ، فيصغي اليهم جميعاً

يصغي اليهم ، ولكن يقال انهُ قلما يقول شيئاً . انهُ يحتفظ بمشورته لسيده الامبراطوري والامبراطور مترفع فوق كل النزاعات

وقد وقع على عاتق سايونجي منذ تقلد منصب المستشار الاكبر للامبراطورية أن يشير على امبراطور بتعيين اربعة عشر رئيساً مختلفاً للوزارة . من هؤلاء كان ثمانية زعماء حزبيين وستة من رجال السياسة غير المنتمين لحزب ما . وكان سايونجي في الغالب يميل الى تعيين زعيم حزبي اذا كان

الجو راتقاً والميدان خلواً من العقبات الكبيرة . والراجح انه كان يحاول أن يضع في ذلك تقليداً شبيهاً بالتقليد الانكليزي ، وهو الانتقال من وزارة الى وزارة ، انتقالاً سهلاً طبيعيًّا يكاد يكون من تلقاء ذاته انتقالاً من زعيم أكثرية أمس الى زعيم أكثرية اليوم

ان الحياة النيابية لا تزال في اليابان غير بالغة كمال النضج والرسوخ ؛ وقد يكون ثمة ميل الى تحويل الحكومة من شكلها النيابي الى ما يعرف بحكومات « القوة » أي الدكتاتورية العسكرية. ولكن سايونجي قد أفسح المجال للحكم البرلماني ، حتى يقيم الحجة بانهُ صالح للبقاء . انهُ يؤمن به. وسايونجي الآن في السادسة والثمانين من عمره ، انفق العشرين السنة الاولى في بلاط تيوتو ، فاذا هو في نهايتها يتقد الروح ويتطلع الجواد ، ويحارب في سبيل الامبراطور ، ثم قضى عشر سنوات في فرنسا يتثقف فعشر سنوات من اللهو والمرح كموظف شاب . ثم عشرين سنة في اعلى المناصب الادارية والسياسية في البلاد ، وها هو اليوم وقد مضى عليه ١٥ سنة ، في حياة هادئة صافية يستعمل في سبيل امبراطوره وبلاده الحكمة التي استقطرها من عبر الحياة

ولد سنة ١٨٤٩ وكان اصغر ابناء بيت « طوكودايجي » وهو من أبهل اسر الاشراف في البلاط الامبراطوري واتفق ان بيت سايونجي النبيل ، وهو من مقام بيت «طوكودايجي» كان في حاجة الى وريث حينئذ ، فاتخذ الفتى كيموكي ، موضوع كلامنا ، وريثاً بمقتضى العرف الياباني والشريعة اليابانية . ويرتد تاريخ الاسرة ، التي اصبح الفتى وريثها وزعيمها بعدئذ الى اواخر القرن الثامن الميلادي

ووث من اسلافه مرح الطبع وحب الجمال ، وترعرع في وسط يتغذى بهاتين الناحيتين من حياة الانسان ولو عاش في العصر الذهبي الياباني لكان من صميم ابنائه ، كان يستطيع ان ينظم قصيدة ، او يسرق خطاه عند الفجر ورد نه على وجهه ، من مخدع غانية من غواني البلاط

عين أميناً للامبراطور وهو في السادسة . وهو تعيين اسمي ولكن هذا التعيين كان صلته بدوائر البلاط الداخلية . اذ كانت الحياة الجديدة تدب في عروق اليابان ، وقد أخذ تراخيها الناشيء عن الطمأنينة وحب الجمال والطبيعة يستبدل به نشاط عجيب فيه كل حوافز الحياة العصرية. فتاريخه انما هو جامع لادوار تاريخ اليابان الحديثة !

وبعد ما حارب في سبيل الامبراطور في حداثته وأبهل قطع له معاش سنوي قيمته قيمة ١٥٠٠ كيس من الرز . ولما حاولوا أن يقيموه حاكماً على احدى مقاطعات الريف ، رفض ، وفي سنة ١٨٧١ سافر الى فرنسا على اثر حرب السبعين ، وفي طريقه عرج عن وشنطن عاصمة الولايات المتحدة ، وقابل الرئيس غرانت . ويؤخذ من رسالة بعث بها الى احد اصدقائه انه دهش « لديكولته » النساء في البيت الابيض وحرية الاختلاط بين الجنسين وها هو ذا قد

عاش حتى هذا العصر وسمع بأذنيه نواح بعض الكتاب على الفتاة العصرية

عاش في باريس معيشة برهيمية، واشترك مع احد اصدقائه تيوفيل جوتييه في وضع دراما مثلت في الاوديون، ولكنه رفض ان يأخذ حصته من الربح المالي الذي عادت به عليهما . وسأله ذات يوم معلم القانون — وكان اكولاس القانوني المشهور — قال : « لقد طال مكثك في باريس أليس من الضروري ان ترجع الى بلادك وتقوم بنصيبك من الحياة العامة » فرد البرنس الشاب : « ان من يرغب في أن يكون سياسيًّا في بلادي ، لا يستطيع ان يصرح بما يضمر ، عليه ان يكون مرائيًا ، ويكذب احيانًا » فرد عليه الفرنسي : هنيئاً لكم اذا كان رجال السياسة عندكم لايكذبون إلاَّ أحياناً »

ولما عاد سايونجي الى اليابان ، في الثالثة والثلاثين من عمره كان غيتا الخطيب الراديكالي الفرنسي مثله بين الرجال وكان كلمنصو طالب الطب ، الراديكالي كذلك صديقه . فلما كانت مسألة الساعة في اليابان مسألة منح الدستور او عدم منحه ، انشأ سايونجي جريدة جعل اسمها (الأنباء الحرة) وجعل عنوان افتتاحيته الاولى (الحرية الادبية والحرية السياسية)

ولكن رجال الحكومة الجديدة كانوا يرغبون في خدمات سايونجي كواحد منهم لا كناقد لاعمالهم. فأقنعوا الامبراطور بأن يصدر امره إلى سايونجي ليتمتع عن المس بالصحافة فامتثل للامر وتخلى عن صحيفته ، وقبل المنصب الذي عرض عليه ، وما زال يتقلب في المناصب، إلى أن بلغ منصب الوزارة . فقد شغل منصب وزير المعارف مرتين ، وأسس على فلسفة التعليم في الوزارة ، ثوب الحرية ، فأدى لبلاده خدمات جلى . ومن جملة المناصب التي شغلها منصب سفير لبلاده في فينا وبرلين ومنصب رئيس للوزارة ثلاث مرات

وقبل ان يعين « سياسيًّا أكبر » تمكن اليابان من تأليف أول وزارة حزبية فيها سعياً وراء إقامة الحياة النيابية على أساس حزبي . وكان رئيس الحزب الذي تقلد الحكم خارجاً من دوائر النبلاء واليروقراطية . فكان في عمله جرأة عظيمة مثل جرأة الزعيم الأكبر المغفور له سعد زغلول باشا إذ عين نجيب افندي الغرابلي وزيراً وكان آخر ما قام به لأمته من الخدمات، أن عين بعد حوادث الاغتيال التي وقعت سنة ١٩٢٣ الاخيرة ، وزارة قومية ، لكي تسير بالامة في العاصفة الثائرة الى بر الامان . وليس ثمة أي تناقض بين المبدين . فهو يرمي الى تنشئة الحياة النيابية الحزبية تنشئة قوية ، ولكنهُ يعمد الى التآلف في الايام العصيبة فقط

هذا الرجل العجيب يعيش في الحاضر ، لانهُ اذنا الامبراطور وعيناه وارادته . ولكنهُ ، لا ريب ، يرتد في بعض اللحظات ، الى ايام الحداثة ، ايام الرمح والجواد والعلم المرفوع . انهُ يضم في حياته باليابان القديمة وباليابان الحديثة !